سیر الملوک

او

سیاست نامہ

بسم الله الرحمن الرحيم

سیر الملوک

مجدد

او

سیاست نامہ

وزارة الثقافة

مكتبة الأسرة الأردنية / مهرجان القراءة للجميع

- سير الملوك أو سياست نامة
- تأليف : نظام الملك الطوسي
- ترجمة : د. يوسف بكار

عمان - الأردن

ص .ب ١٣٢ - عمان

تلفون : ٤٦٢١٧٢٤

تلفاكس : ٤٦٣٧٠٤١

www.jowirters.org

Email:info@jowiters.org

- الطباعة : مطبعة السفير هاتف : ٤٦٥٧٠١٥

- **جميع الحقوق محفوظة للناشر** : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 2042/ 6 / 2012

سير الملوك

مجلد

أو

سياست نامه

تأليف

نظام الملك الطوسي

وزير السلاجقة المشهور

٤٠٨ - ٤٨٥ هـ

ترجمه عن الفارسية

الدكتور يوسف بكار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثالثة

فها هي ذي سبع وعشرون سنة تنقضي على صدور الطبعة الأولى من الكتاب وعشرون على الطبعة الثانية، التي حظيت بسهم وفير من التنقيح والتعديل والمعاودة والزيادة لاسيّما في عمل الفهارس.

وعلى الرغم من أن الكتاب مترجم فقد تعقبته انطلاقاً من الخبرة والممارسة والتجدد المعرفي، من جديد في هذه الطبعة الأجدّ تعقّباً شاملاً أفضى إلى أمور كان في مسيس الحاجة إليها، هي بإيجاز شديد كافٍ:

(١) إبعاد شبح الترجمة الحرفية، الذي كان يتراءى في مواطن قليلة جدًّا، بمراعاة أصول تراكيب العربية وأساليبها، حتى غدا الكتاب كأنه مؤلف تأليفاً وليس مترجماً. وهذا هو ما يصرُّ عليه منظّرو فنّ الترجمة دائماً.

(٢) تنقية الكتاب مما دلف إليه من أخطاء طباعية في الإملاء واللغة والنحو، ومن التراكيب الحديثة والاستعمالات غير الدقيقة.

(٣) إضافة حواشٍ جديدة وتعديل أخرى قديمة.

(٤) إدخال موادّ جديدة كانت منسيّة في أكثر فهارس الكتاب.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢).

يوسف بكّار

إربد ٢٠/٠٣/٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة من «سياست نامه» «منقّحة» و«مزيدة» في آن. فأمّا أن تكون منقحة فذا شيء طبيعي ومطلوب في دنيا الكتابة والتأليف والترجمة أيضاً؛ وهو من الأمور التي لا تثير دهشةً أو استغراباً. وعلى أية حال، فالتنقيح هنا كثير وجذري لا تكاد تفلت منه صفحة من صفحات الطبعة الأولى في غير مجال وناحية، إذ امتدّ ليشمل الألفاظ والمصطلحات والصياغة والأسلوب تغييراً وحذفاً وإضافة.

أمّا أن تكون «مزيدة»، والكتاب مترجم، فذا الذي قد يبعث على الدهشة والاستغراب، ويدفع إلى التساؤل: أين الزيادة إذاً، وكيف تكون؟! إن الإجابة سهلة ميسورة، فالزيادة زيادتان لا واحدة:

الأولى: ما أدخلته على الكتاب من إضافات وتوضيحات في هوامشه وحواشيه.

والأخرى: الفهارس العلمية التسعة التي «صنعتها» له، وهي – في رأيي – زيادة علمية وحقيقية في كتاب كهذا أجمع فأوعى ومزج فيه صاحبه التاريخ بتجاربه الخاصة وزيراً لآل سلجوق قرابة خمسة وثلاثين عاماً مما جعل بعض بني جلدته من المعاصرين يقرن اسمه باسم «ديغول» فرنسا ويصفه بـ«السياسي العجوز».

لم يكتفِ نظام الملك بأن يلبّي رغبة مليكه «ملكشاه السلجوقي» فيؤلّف كتاباً يكون «دستوراً» يتّبع في إدارة الحكم والدولة وتسيير الأمور بالعدل والحقّ والعزم والحزم حسب[1]، إنما انعطف بقوة وشدّة، لكن في حدود الرغبة الملكية ونطاق التكليف وآفاقه، إلى الكشف عن أحقاد مخالفي الدولة من وزراء وولاة وعمّال طامعين وأعداءٍ متربّصين؛ وإلى فضح ذوي المذاهب الخبيثة الفاسدة، وقد

(١) كان ملكشاه قد طلب من مشاهير دولته وحكمائها ومسنّيها أن يؤلّفوا كتاباً في هذه الأمور وفي سنن السلف الصالح الحميدة ليهتدي بها ويقتدي؛ ثم اختار كتاب نظام الملك هذا من بين الكتب التي أُلّفت جميعاً. غير أن الكتاب دوّن بعد مقتل صاحبه وموت الملك بعده بمدة قصيرة جدًّا.

تصدّى لهم ما وسعه الجهد، التي كانت – على تعددها وكثرة أسمائها- تنضوي تحت راية «الباطنية» الكبرى لا هدف لها سوى تقويض الإسلام ومحق المسلمين وإدالة دولتهم.

أفلا يستحق كتاب هذا شأنه في شهرة مؤلّفه وأهميته وفي تنوّع موضوعاته وشموليّتها أن «تصنع» له فهارس للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأمثال والحكم والأقوال المشهورة، والأشعار العربية والمترجمة، وألفاظ الحضارة ومصطلحاتها، والكتب، والأعلام، والأقوام والأسرات، والملل والنِّحل، والأماكن والبلدان؟

إنَّ هذه الفهارس قمينة، وحدها، بأن تبرز قيمة الكتاب وأهميّته دينيًّا وفكريًّا وتاريخيًّا وحضاريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وإداريًّا، وأن تكشف عن طول باع صاحبه ومقدرته وتديّنه وسعة علمه وثقافته وجرأته التي دفع، بأَخَرة، حياته ثمناً لها، لكن بعد أن وطّد ملك السلاجقة ووسَّع آفاقه ودافع عنه وحماه، وكان يفتخر بأن «تاج» السلاجقة منوط بِـ «دواته» هو؟ وبعد أن أسّس المدارس «النظامية» في حواضر الدولة الإسلامية كلها فكانت «جامعات» قبل أن يعرف العالم الجامعات بالمفهوم الحديث.

وبين «التنقيح و«الزيادة» صحَّحتُ بعض الأخطاء الكثيرة التي ابتليت بها الطبعة الأولى، وأعدت إلى الكتاب ما سقط منه أو حذف في التصدير والمتن والحواشي والهوامش وثبّت المحتويات.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، فالكمال لك وحدك؛ سبحانك إنك على كل شيء قدير.

يوسف بكّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الترجمة
مقدّمة الطبعة الأولى

الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكلّ أمة حيّة تنشد الكمال الإنساني أو الاقتراب منه في الأقل. إنّ ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمة وأهمها لأنها تفسح المجال واسعاً أمام أبناء مختلف أمم الأرض للاطلاع على ميراث بعضها والإفادة منه، وربما التأثر به أيضاً.

ولست أراني في حاجة للعودة إلى الوراء لأقلّب صفحات التاريخ قديمه والحديث وأستعرض تاريخ الصِّلات الثقافية والعلمية، وفيها الترجمة، بين الثقافتين العربية والفارسية؛ فقد كتبت في هذا الموضوع دراسات رصينة جادّة، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أن الترجمة من الفارسية إلى العربية، وربما العكس أيضاً، كانت من أقدم وسائل تلك الصلات وأوسعها وأكثرها نشاطاً. ولم يقف بها الزمن عند القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية، إنما واصلت مسيرتها الطويلة على مرّ الأعصر إلى أن توقّفت عجلتها، مع ما توقف، حيناً من الدهر في عهود العتمة والانحسار والركود التي رانت على العالم الإسلامي قاطبة. لكنه ما إن أفاقت أمم الشرق من سباتها الطويل العميق وأخذت تعاود اتصالاتها ببعضها وبغيرها من دول العالم أيضاً، استأنفت الصِّلات العربية الفارسية أنشطتها المختلفة من جديد، ووصلت حاضرها بماضيها، فأتت أكلها يانعة طيبة، إذ ألّف رعيل من أبناء الأمتين في تراث الأمّة الأخرى وترجم، وما زالت كوكبة من المحقّقين والباحثين والدارسين تواصل السير على هذه الطريق العلمية المباركة.

ولإيماني العميق بهذه المسيرة الخيّرة التي كان لي شرف الإسهام في التأريخ للجانب الأدبي[1]

(١) للمترجم في هذا المجال:

١- جهود عربية معاصرة في خدمة الأدب الفارسي. بحث طويل ألقي بدعوة من جامعة مشهد (الفردوسي سابقاً)، في مؤتمر التحقيقات الإيرانية الثاني (٢-٧ أيلول ١٩٧١م)، ونشر في المجلد الثاني لأعمال المؤتمر (مشهد ١٩٧٣م). وقد ترجمه إلى الفارسية الأستاذ الدكتور جعفر شعار ونشرته مجلة «سخن» الطهرانية في ثلاثة أعداد متتالية هي السادس والسابع والثامن. من دورتها الثالثة والعشرين لعام ١٣٥٣ شمسي (١٩٧٤م). =

منها، والمشاركة بنصيب[٢] ضئيل فيها، رحّبت باقتراح ترجمة كتاب «سِيَر الملوك» المعروف بـ«سياست نامه» أثر الوزير الإيراني العظيم نظام الملك الطوسي إلى لغة الضادّ، لما له من أهمية كبيرة، لا من الناحية التاريخية[٣]، وحدها، إنّما من حيث إنه يعدّ دستوراً قيّماً في كيفية سياسة البلدان وتسيير دفّة الأمور فيها بالمنطق والحزم والعدل والحكمة.

ليس في نيّتي أن أتحدّث هنا عن الكتاب وصاحبه، لأن صديقي العلاّمة الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفي[٤] قد كفاني مؤونة هذا في تصديره القيّم الذي وشّح به هذه الترجمة، فعرض فيه بتفصيل نقدي موضوعي ثاقب لحياة نظام الملك، وتحدث عن موضوعات الكتاب وحلّلها تحليلاً

= ٢- الفارسية وآدابها في البلاد العربية، مقال طويل نشر في مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة الفردوسي- مشهد. العدد الثاني عشر ١٣٥٣ شمسي.

وقد ترجمته مليحة شريفي إلى الفارسية ونشرته في مجلة «سخن» أيضاً. العددان ٩ و١٠. السنة (٢٦)- ١٣٥٧ ش (١٩٧٨م).

(٢) للمترجم في هذا المجال أيضاً:

١- دور الفرس في الثقافة العربية في نظر الدارسين العرب المعاصرين. مجلة الإخاء «طهران» السنة (١١)، العدد (١٨٦) كانون الثاني (يناير ١٩٧١م).

٢- شعراء فرس في الأدب العربي. مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة مشهد. العدد الثاني ١٣٥١ شمسي.

٣- خراسان في التراث العربي (بحث). مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة الفردوسي. العدد السادس، آب ١٩٧٣م.

٤- ترجمة بحث «العالم المنشود في بستان سعدي الشيرازي» للدكتور غلام حسين يوسفي. مجلة البيان. الكويت، العددان ٩٤ و٩٦ كانون الثاني وآذار ١٩٧٤م.

٥- سمات الأدب الفارسي المعاصر، للدكتور غلام حسين يوسفي – (ترجمة) مجلة الفيصل السعودية. العدد (٢٨) - أيلول ١٩٧٩.

٦- نظرات في سياست نامه، في كتابي: قراءات نقدية. دار الأندلس – بيروت، ط٢: ١٩٨٢.

٧- الخيّام الشاعر ورباعياته (ترجمة). مجلة المجمع العلمي الهندي. العدد (٨)- ١٩٨٣.

٨- من مزالق الترجمة بين العربية والفارسية في كتابي: قضايا في النقد والشعر. دار الأندلس ١٩٨٤.

٩- ثمّة أعمال أخرى جدّت، وهي مذكورة في ثبت أعمال المترجم في آخر الكتاب، فضلاً عن عدد من البحوث عن عمر الخيام تأليفاً وترجمة.

(٣) إن الذين حقّقوا كتاب «سياست نامه» أو كتبوا عنه لا يعدونه كتاب تاريخ محض لما جاء فيه من أخطاء تاريخية، ولأن نظام الملك لم يكن يهدف إلى تأليف كتاب تاريخ، بل وجّه همّه إلى بيان الطريق المستقيم في سياسة الدول والالتفات إلى كل ما من شأنه أن يكون عظة وعبرة، وما إلى هذا من الأمور.

(٤) توفي، رحمه الله، يوم ٦/ ١٢/ ١٩٩٠ بطهران.

دقيقاً منصفاً – على عادته في كل تواليفه وبحوثه وأعماله- وفاه حقه، ولم يترك مجالاً لمزيد. إلا أنني سأقصر كلامي على ناحيتين فقط: الأولى تتصل بنواحي أخرى من الكتاب غير التي عرض لها الدكتور يوسفي، وتشتمل أيضاً على العناية الكبيرة التي أحرزها هذا الكتاب من لدن الإيرانيين والمستشرقين تحقيقاً وترجمة؛ والأخرى تدور حول ترجمتي هذه وما يدور في فلكها من أمور.

أما عن الناحية الأولى، فعلى الرغم من أن الكتاب «يعز نظيره بين الكتب الفارسية[٥]»، فقد كان إلى زمن قريب – وما زال تقريباً- مثار جدل كبير، بين الإيرانيين خاصة، خلاصته أن الكتاب لا يمكن أن يكون النسخة الأصلية التي خطّتها يد نظام الملك نفسه، لأنه ظل مدّة ليست قصيرة بعد مقتل صاحبه وديعة عند محمد المغربي كاتب السلطان الخاص الذي لا يستبعد بأن يده – أو يد غيره- قد امتدّت إليه وعبثت به. وقد قدّم المرحوم الأستاذ عباس إقبال أدلّة على هذا من طبعته للكتاب التي اعتمد في تحقيقها على بضع نسخ خطيّة متأخرة[٦]. غير أن طبعة المستشرق دارك الثانية وطبعة الدكتور جعفر شعار اللذين اعتمدا في نشرهما على نسخة خطيّة جديدة عثرا عليها في «تبريز» تخلوان خلوًّا تامًّا من الأدلّة التي اتّكأ عليها عباس إقبال واتخذها شواهد على ما ذهب إليه حتى أضحت للآخرين حقائق مسلمة. يصف دارك النسخة الخطية الجديدة بقوله: «إنها نسخة أصيلة، وهي أصح النسخ الأخرى وأكثرها اعتباراً. يعود تاريخ كتابتها إلى عام ٦٧٣هـ، وهي مكتوبة بخط حسين بن زكريا بن الحاج الدهستاني... كما أنها تخلو من عيوب النسخ الخطية الفارسية الأخرى، وأن كاتبها لم يطلق لخياله وذوقه العنان فيعبث بالنص حذفاً أو إضافة أو تغييراً»[٧]. ثم «إنها أقدم نسخ الكتاب الخطية»[٨]. ومهما قيل ويقال في هذه المسألة، فإن الكتاب، فيما يقول الدكتور يوسفي في تصديره الآتي: «لأهم ذكرى وأحسن وثيقة عن عصر نظام الملك، وطريقة تفكيره، وكيفية حكمه».

كانت هذه أولى المشكلات التي ظهرت لي وأنا أفكر في ترجمة الكتاب، والتي تنعكس بجلاء في التباين الظاهر بين طبعات الكتاب المختلفة. ومن هنا أي من تعدد طبعات الكتاب انبجست المشكلة الأخرى، وأظنها تعرض لكل مترجم يقدم على ترجمة كتاب طبع بضع طبعات متباينة. غير أن الاهتمام بـ«سياست نامه» وطبعه مرات يحمل غير دلالة، لعل من أهمها قيمة الكتاب وتعدّد مخطوطاته واختلافها.

(٥) عباس إقبال، مقدّمة سياست نامه ص ط.

(٦) المرجع نفسه، المقدمة ص أ- ب.

(٧) مقدمة الطبعة الثانية (بالفارسية) ص ١١- ١٢.

(٨) المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

فلقد طبع «سياست نامه» عدة طبعات، وترجم إلى غير لغة أجنبية. وكان المستشرق الفرنسي شارل شفر أول من نشر نصه الفارسي بباريس عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) بالاعتماد على مخطوطات باريس ولندن وبرلين، وموازنتها - إلى حدٍّ - بمخطوطتي ليننغراد. وفي عام ١٨٩٣م ترجمه إلى الفرنسية، وفي عام ١٨٩٧م أصدر ملحقاً لترجمته بمباحث الكتاب التاريخية.

واتخذت طبعة شفر، مع أنها فيما يقول دارك، «ليست مرضية»[٩]، أساساً لبضع طبعات وترجمات أخر. ففي عام ١٣٣٠ أعيد طبعها بالحجر في بومباي بالهند[١٠].

ثم أخذت طبعات الكتاب تترى في إيران نفسها، ففي عام ١٣١٠ شمس (١٩٣١م) طبع طبعة منقّحة باهتمام عبد الرحيم خلخالي، وفي عام ١٣٢٠ شمسي أصدر المرحوم عباس إقبال طبعة جديدة منه لتدرّس في المدارس الإيرانية، وقد عورضت بطبعتي شفر وخلخالي. تمتاز هذه الطبعة بمقدّمتها الجيدة وحواشيها المفيدة التي ظلت مورداً ينهل منه كل من حقّق الكتاب ونشره أو كتب عنه بعده. وفي عام ١٣٣٤ شمسي نشره، على أساس طبعة شفر، مرتضى مدرسي چهار دهي محلّى بتصحيحات العلاّمة محمد قزويني وحواشيه. وفي عام ١٣٤٠ شمسي نشره المستشرق الإنجليزي هيوبرت دارك معتمداً على عدد كبير من مخطوطاته التي جمعها من شتّى بقاع العالم[١١]، ثم ترجمه عام ١٩٦١ إلى الإنجليزية. غير أنه لما عثر على نسخة النخجواني في تبريز بعد سبع سنوات من طبعته الأولى، أعاد طباعته عام ١٣٤٧ شمسي (١٩٦٢م) لما لهذه المخطوطة من ميزات وخصائص هي التي نقلتها عنه سابقاً، وهي نفسها التي حملته على أن يقول بثقة واطمئنان: «إن طبعة شفر، بالاهتداء إلى ما بين أيدينا من نسخ معتبرة، قد فقدت أهميتها»[١٢].

ونشره، على أساس مخطوط النخجواني في الدرجة الأولى، الأستاذ الدكتور جعفر شعار عام ١٣٤٨ شمسي أي بعد عام واحد من طبعة دارك الثانية. إن هذه الطبعة لا تختلف في متنها عن طبعة دارك الثانية في شيء لاعتماد المحقّقين - في الدرجة الأولى- على مخطوطة تبريز نفسها، كما أنهما تمتازان بما أضاف إليهما المحقّقان من تعليقات وملاحق لغويّة واصطلاحية وفهارس مختلفة. وقد أفاد المحقّقان كلاهما - لاسيّما في التعليقات - من حواشي طبعة المرحوم إقبال، وقد أشار الدكتور شعار نفسه إلى هذا في مقدّمته[١٣]. ونشره البروفسور محمد آلتاي كويمن بأنقرة عام ١٩٧٦.

---

(٩) مقدمته ص ١٩.

(١٠) مقدمة عباس إقبال، ص ي.

(١١) انظر وصفه لهذه المخطوطات وكلامه عليها في مقدمته ص ١٥ - ١٨.

(١٢) المرجع نفسه ص ١٩.

(١٣) ص ١٢.

كانت تلك هي طبعات الكتاب، أما ترجماته، فقد ترجم - إلى الآن فيما أعلم - إلى خمس لغات، إذ تقدّمت الإشارة إلى أن شفر ترجمه إلى الفرنسية، ودارك إلى الإنجليزية. وترجمه - على أساس طبعة شفر والإفادة من نسختي لينينغراد- ب.ن. زاخورد إلى الروسية، وصدرت الترجمة بموسكو عام ١٩٤٩م. كما ترجمه، على أساس طبعة شفر أيضاً والاستفادة من الترجمة السابقة، ك.أ. شابنكر إلى اللغة الألمانية، ونشرت هذه الترجمة بميونيخ عام ١٩٦٠م[١٤]. وترجم إلى التركية مرتين: الأولى ترجمة محمد شريف كاڤادار أوغلو (استانبول ١٩٥٤)، والأخرى ترجمة نيورتن باي بورتلغل Nurettin Bay Burtlugil (استانبول ١٩٨١).

تلكم هي التركة الثقيلة التي وجدت نفسي أمامها وجهاً لوجه، وأنا أقدم على ترجمة «سياست نامه»، لكنني أيقنت، بعد طول تأمّل، أن لا مفر لي من اعتماد طبعة من طبعات الكتاب أصلاً للترجمة، وإن كان لا بدّ من الاختيار، فلا مندوحة من اختيار واحدة من اثنتين: طبعة دارك الثانية، أو طبعة الدكتور شعار لأنهما - لاعتمادهما على مخطوطة تبريز- أوفى الطبعات وأكملها على الإطلاق، وأنقاها من الشوائب التي حملت محقّقيها على الجزم بتلاعب النسّاخ بالكتاب والبعد به عما دبج نظام الملك. وكان أن اخترت طبعة الدكتور شعار لأن الرجل إيراني وواحد من ذوي الفضل في الفارسية وعلومها، ومن أساتذتها المعروفين أيضاً، وأبناء اللغة المتخصّصين فيها أدرى دائماً بشعابها ومضايقها واصطلاحاتها وأمثالها ومجازاتها وأقدر على فهمها من غير أهل اللغة المتخصّصين فيها، مهما أوتي هؤلاء من فضل ومقدرة وسعة اطلاع. وعلى الرغم من ثناء الدكتور شعار على دارك وطبعته بقوله: «إن طبعته الثانية تفضل طبعة شفر وتتفوق عليها، إذ نحا في التحقيق النحو المعروف عن علماء الغرب من دقّة النظر» فإنه يقول عنه: «إن المحقق على الرغم من دقّته تنقصه المعرفة بخصائص التراكيب في الفارسية، مما أدى إلى وقوعه في عدد من الأخطاء» ثم ذكر نماذج من هذه الأخطاء[١٥].

لكن اختياري هذا لم يصرفني عن طبعتي دارك وعباس إقبال اللتين كنت أفزع إليهما بين الحين والحين إذا ما اعترضني عارض للتثبّت من حقيقته. ومن المفيد جدًّا أن أشير هنا إلى الأمور الآتية:

١- اعتمدت في تسجيل القسم الأكبر من أخطاء المؤلف التاريخية في الهوامش على حواشي عباس إقبال التي كانت - فيما ذكرت - المورد الثرّ الذي استقى منه سائر المحقّقين بعده. لكنني اكتشفت أخطاء وتصحيفات جديدة فاتت المحقّقين الأفاضل[١٦].

(١٤) انظر أيضاً: مقدمة طبعة دارك الثانية ص ٢٠.

(١٥) انظر مقدمته ١٢ - ١٣.

(١٦) من الأمانة العلمية أن أذكر أنني لم أطّلع على طبعات شفر والهند وخلخالي لعدم توافرها.

٢- لما بدا لي أن في بعض عبارات طبعتي الدكتور شعار ودارك شيئاً من تصحيف أو أنها لا تنسجم مع سياق الكلام والمعنى الذي وضعت له، رجعت إليها في نسخة إقبال وتراءى لي أنها أصحّ وأكثر انسجاماً، ترجمتها عنه.

٣- جارى الدكتور جعفر شعار المرحوم عباس إقبال في حذف بعض الحكايات والأخبار لأسباب أخلاقية واجتماعية، لكن دارك لم يحذف من المتن شيئاً، فترجمت الأشياء المحذوفة عن طبعته حرصاً على أمانة الترجمة.

٤- يخلو الكتاب في الأصل - كغيره من أكثر المؤلفات القديمة - من العناوين الفرعية في الفصول، لكن الدكتور شعار رغبةً منه في التفريق بين محتويات الكتاب وتوضيحها - لاسيّما قصصه التي تبدأ كل منها بعنوان (حكاية) - جعل لها عناوين من عنده، فتابعته في صنيعه هذا وزدت عليه تسهيلاً للقارئ ودرءاً لملالته. فالعناوين الموضوعة بين (قوسين) من وضعي أنا، أما العناوين الأخرى فللدكتور جعفر شعار.

فضلاً عمّا تقدّم، فلقد راعيت في ترجمة الاصطلاحات التاريخية والأمثال ولغة ذلك العصر الدقة المتناهية ما حالفني التوفيق، واحتفظت بالألفاظ والاصطلاحات الفارسية التي استعملتها كتب التاريخ العربية كما هي ونبّهت على المعرّب منها. ثم زوّدت الترجمة بهوامش توضيحية موجزة للأعلام والأماكن مما اعتقدت بوجوب ذلك فيها.

لكلّ ما تقدّم طالت رحلتي في ترجمة هذا الكتاب إلى ما يقرب من ثلاث سنوات لم أضنّ فيها بجهد أو وقت في التنقيب عن شيء هنا، وآخر هناك، لكنني لست أدري - مع هذا - إلى أي مدى وفّقت في ترجمة هذا الأثر الجليل النافع. ومهما يكن فبحسبي أنني أردت أن أقدّم، بترجمته، خدمة صغيرة لتراثين عريقين ثرّيْن ثريَّيْن هما عمدة ما بقي من تراثنا الإسلامي في أصقاع المعمورة.

إنه لمن الواجب والحق بعد انتهاء هذه الرحلة أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الصديق الدكتور غلام حسين يوسفي رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها السابق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الفردوسي بمشهد على عونه لي في حلّ بعض معضلات الكتاب وتوضيحها وتوجيهها، وعلى تفضّله بكتابة تصديره القيّم عن السياسي العجوز نظام الملك وكتابه «سياست نامه».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

يوسف بكّار

تصدير

السياسي العجوز

للدكتور غلام حسين يوسفي*

- ١ -

إن حياة الخواجة[١] نظام الملك من حيث التجارب التي استقاها من خلال إدارته دفّة الحكم، ومن حيث طول مدّة وزارته، وسعة آفاق حكومته خاصة، جليّة جدًّا، ونادرة المثال. وبحسبنا أن نقول إنه كان الوزير القدير لألب أرسلان وملكشاه السلجوقي ثلاثين سنة (٤٥٥- ٤٨٥هـ)[٢]، وإنه «وسّع آفاق دولة إيران توسعة لم يُرَ لها في إيران نظير في هذه الألف والثلاثمائة سنة من تاريخ الإسلام، وإنه لم يكن في أنحاء كاشغر، وأوزجند، وبلاساغون، وما وراء النهر، وخوارزم، وخراسان، وسجستان، وكرمان، وفارس، وعراق العجم، وعراق العرب، ومازندران، وأذربيجان، وأرمينية، وآران، والشام، وبيت المقدس، وأنطاكية، من يتأخّر في تنفيذ أوامره وتطبيقها قيد أنملة. لقد كان السلطانان المذكوران - وقد كانا من أعظم سلاطين السلاجقة - يطيعان آراءه ويقرّان تصرّفاته و...، ولم يكن خلفاء بني العباس، في الغالب، يميلون برؤوسهم عن رغبته وإرادته. لقد كان أباطرة الروم وحكّام غزنين يعيشون في ظلّ حمايته. أما سلطان العرب، فسار في ركبه ماشياً، وقبّل حافر

* المترجم: كتب الدكتور يوسفي هذا التصدير بالفارسية، فنقلته إلى العربية. وقد نشره في كتابه «ديداري با أهل قلم» (في صحبة أهل القلم). الجزء الأول ص ١٠٧ - ١٤١، منشورات جامعة الفردوسي- مشهد ١٩٧٦.

(١) المترجم: الخواجة لقب نظام الملك.

(٢) راجع: نسائم الأسحار من لطائم الأخبار. تحقيق مير جلال الدين أرموي «محدّث». منشورات جامعة طهران ١٣٣٨ شمسي، وآثار الوزراء ص ٢٠٧ تأليف سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي، تحقيق محدث، منشورات جامعة طهران ١٣٣٧ شمسي، وتاريخ أدبيات در إيران (تاريخ الأدب في إيران) ٢: ٩٠٥ للدكتور ذبيح الله صفا، طهران ١٣٣٦ شمسي.

جواده، وأما ملوك الأطراف، فكانوا يضعون كتبه ورسائله على رؤوسهم وأعينهم، ويعدّون ارتداء خلعته شرفاً لهم»[٣].

عُمِّر الخواجة سبعاً وسبعين سنة، تولّى في صباه الكتابة لأبي عليّ بن شاذان حاكم بلخ، وأصبح من بعد كاتب ألب أرسلان إلى آخر العمر، وبتعبير آخر إنه قضى عمدة حياته بالسياسة. لقد كانت أمور الدولة كلها إبّان وزارته تحت نظره، وعلى يديه تمّت إنجازاتٌ وأعمال عزيت إليها شهرة السلاجقة الأتراك وتقدّمهم، سواء في عهد نظام الملك[٤] أم بعده[٥].

لقد وصل نظام الملك إلى هذا المقام الرفيع من مرتبة عادية. فقد كان – فيما يقول هو نفسه – لا يملك في أيام شبابه سوى ثلاثة دنانير مما اضطره إلى أن يقترض أربعة أخرى ليتمكّن من شراء حصان بسبعة دنانير، لكنه لما نقل إليه أيام وزارته نبأ غرق جياده العربية الخمسمائة لم يأبه لهذا الخطب الذي نزل به ولم تبد عليه سيما تأثر قطّ[٦].

وتروى في ترجمته القصة الآتية: لما تقرر أن ينضم إلى موكب السلطان في سفره، وكان ذلك في بدء خدمته في ظل ألب أرسلان، وقبل أن يصل إلى منصب الوزارة «انتابه غمّ شديد، لأنه لم تكن لديه الآلة التي تمكّنه من مواكبة الموكب في سفره»، إلى أن استطاع في نهاية الأمر أن يعثر في أحد المساجد على ذهب لأعمى ذلّل به مشكلته[٧].

---

(٣) مجتبي مينوي: «خواجة نظام الملك الطوسي» نقد حال، ص ١٩١ منشورات الخوارزمي، طهران ١٣٥١، وراجع أيضاً: الدكتور عبد الحسين زرين كوب، فرار از مدرسة (الفرار من المدرسة) ص ٥٤– ٥٥ و٣١٢ منشورات دائرة الآثار الوطنية، طهران ١٣٥٣ شمسي.

(٤) يقول المعزي:

أنت الوزير الميمون الذي رفعت بكفايتك دولة السلاجقة رأسها إلى عنان السماء (ديوان معزي ٦٠٢).

المترجم: المعزي هو أمير الشعراء عبد الله محمد بن عبد الملك، ومن كبار شعراء العصر السلجوقي. كان أبوه عبد الملك شاعر بلاط ألب أرسلان. أما المعزي فكان يعيش في كنف ملكشاه إلى وفاته، وهو الذي لقّبه بأمير الشعراء. وبعد مدة صار إلى خدمة سنجر بن ملكشاه وظل يعيش في بلاطه إلى آخر عمره (زهراى خانلرى: فرهنگ أدبيات فارسي ٤٦٩– ٤٧٠).

(٥) راجع: عباس إقبال، سياست نامه (مقدمة ج– د). منشورات وزارة الثقافة، طهران ١٣٢٠ شمسي، وتاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٠٥.

(٦) تجارب السلف ٢٦٨– ٢٦٩ تأليف هندوشاه بن سنجر بن عبد الله الصاحبي النخجواني. تحقيق عباس إقبال. طهران ١٣١٧ شمسي.

(٧) تجارب السلف ٢٧٨ ودستور الوزراء ١٥٢– ١٥٣ تأليف غياث الدين بن همام الدين المعروف بخوندمير. تحقيق سعيد نفيسي، طهران ١٣١٧ شمسي.

كان أبو علي الحسن بن دهقان[٨]، وكان جده إسحاق دهقاناً في بيهق. ولما ارتقى المقام بأبيه أبي الحسن علي في خدمة أبي الفضل سوري بن المعتز حاكم خراسان من لَدُن الغزنويين، أسند إليه أمر ضرائب طوس ومكوسها، أو فيما يقول هندوشاه النخجواني «لقد عمل والده، غير أن دخله لم يكن يفي بنفقاته»[٩].

ولم يمض وقت طويل حتى أضحى ابن هذا الدهقان الخراساني أعظم رجل سياسي في عصره، لكن عاقبة أمره كانت عبرة للآخرين، إذ انتهت قدرته بمقتله. مهما يكن، فقد طوى المراحل كلها، فكان ذا معرفة بالعالم وناسه، وقد كُتب له التوفيق في إدارة دفّة الحكم والدولة.

ولد الحسن نظام الملك سنة ٤٠٨ هجرية في «نوقان» إحدى قرى «الراذكان» بطوس، وفيها تعلّم وقرأ القرآن، ثم تعلّم العربية وفقه الشافعية والحديث في مدن خراسان الأخرى من مثل: طوس، ومرو، ونيسابور. وفي ذكائه في طفولته وصباه أحاديث كثيرة. وقد استطاع في سن العشرين أن يظفر بنصيب وافر من العلوم الشرعية. ولقد كان أيضاً، كاتباً قديراً كفؤاً؛ إذ تمكّن من أن يلفت إليه نظر جغري بك أخي طغرل السلجوقي، وصار بعد ذلك كاتب ابنه ألب أرسلان، ومتصدي كل شؤونه. لقد عيّن ألب أرسلان، في أثناء حكومته بخراسان، الخواجة وزيراً له عام ٤٥١ هـ؛ ولما أصبح سلطاناً عهد إليه عام ٤٥٥ هـ بوزارة ممالك آل سلجوق بدلاً من عميد الملك الكندري[١٠]. وظل نظام الملك يشغل هذا المقام العظيم إلى آخر لحظات حياته.

لقّب الخواجة بِـ «تاج الحضرتين» لأنه وزير لسلطانين، «ومنح من دار الخلافة لقب «رضي أمير المؤمنين» في حين أن الخلفاء لم يمنحوا لقباً لأي وزير غيره»[١١].

لم يكن نظام الملك بارعاً في السياسة وصاحب قلم بارع حسب، إنما كان، فضلاً عن ذلك، «ذا خبر

---

(٨) كانت طبقة الزراع في إيران قبل الإسلام ولعدة قرون في الإسلام، عبارة عن ملاكي الدرجة الثانية، الذين كانوا يعدون من الأحرار والأصلاء والشرفاء. مجتبي مينوي: نقد حال ١٩٣ وراجع أيضاً: الدكتور ذبيح الله صفا، حماسه سرايي در إيران (فن الملحمة في إيران) ٦٢- ٦٣ طهران ١٣٣٣ شمسي و: Lambton: Dinkan, El (٢) ٢٣٥- ٢٥٤، ١١.

(٩) تجارب السلف ٢٦٦.

(١٠) تجارب السلف ٢٦٦- ٢٦٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٠- ١٥١، وتاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٠٥.

(١١) آثار الوزراء ٢٠٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٨. ومدحه لامعي الجرجاني بهذا اللقب فقال:

«أي نظام الملك المحمود، يا شمس العصر، وزين الدنيا والزمان وزينته».

«الناس يهتفون: (رضي أمير المؤمنين) بحر إذا تحرك، طود إذا سكن»، (ديوان لامعي ١٥٣).

واطلاع على أكثر العلوم»[١٢]. وكان «يسهم في تدبير شؤون الديوان والولاية، ويقوم على تنظيم العساكر وتعبئة الجيوش»[١٣]، حتى إنه، في الحروب، كان يقاتل في طليعة الجيش جنباً إلى جنب مع أبنائه وغلمانه ويواجه الأخطار بعزم الرجال ومضائهم[١٤].

كان لنظام الملك اثنا عشر ولداً، وعدد كبير من الأصهار وذوي القربى. ولقد عهد إلى كل واحد من أبنائه وأقاربه وغلمانه بولاية وحكومة، كما أنه أوصل أنصاره إلى مصاف الجاه والنعمة؛ فكان سلطان السلاجقة من أقصاه إلى أقصاه تحت نفوذه وسيطرته، وكان أمره نافذاً في كل مكان[١٥].

إنّ قصة الحوالة المشهورة – أي الكتابة إلى والي انطاكية بالشام لدفع أجرة الملاحين بجيحون – التي وردت في أغلب المصادر[١٦]، والتي أراد نظام الملك أن يعرض من ورائها سعة المملكة ونفاذ أمر السلطان، أو نفاذ أمره هو – في الحقيقة – نموذج آخر من نماذج أهمية نفوذه ومقامه.

يروى أنه كان للخواجة نفسه ألفا غلام، حتى إن خصومه خوّفوا ملكشاه من أن نظام الملك بكثرة هؤلاء الغلمان، إنما يبيّت خلافاً وعصياناً؛ غير أن الخواجة استطاع بحسن تدبيره أن يجد مخرجاً لسوء الظنّ هذا[١٧]. إن غلمان نظام الملك الطوسي ظلّ لهم نفوذهم وقدرتهم حتى بعد موت سيّدهم، وهم أنفسهم الذين حموا «بركيارق» حين فرّ من أصفهان، منتهجين سياسة ذلك الوزير القدير الذي كان بركيارق مورد حمايته في حياته إزاء محمود بن ملكشاه، وهم الذين قوّوه وشدّوا أزره، ومضوا به من أصفهان إلى «ساوه» و«آوه» عند المؤدب كمشتكين جاندار – وقد كان مؤدّب بركيارق –، ليمضي به إلى الريّ ويجلسه على سرير السلطنة[١٨].

واستطاع الخواجة أن يكسب نفوذاً واحتراماً كبيرين في الأوساط الدينية، بما كان يتحلّى به من روح

(١٢) آثار الوزراء ٢٠٧.

(١٣) نسائم الأسحار ٥٠، وآثار الوزراء ٢٠٧.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) المرجع السابق نفسه.

(١٦) تجارب السلف ٢٦٧، وآثار الوزراء ٢٠٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٦، ودستور الوزراء للواعظ الأستر آباذي ص ٢٠، تصحيح إسماعيل واعظ جوادي، طهران ١٣٤٥، وتاريخ نگارستان للقاضي أحمد غفاري ص ١٤١. تحقيق مرتضى مدرسي گيلاني، طهران ١٣٤٠ شمسي.

(١٧) آثار الوزراء ٢٠٨.

(١٨) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٧٠ نقلاً عن راحة الصدور ١٤٠ (طبعة ليدن ١٩٢١) وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٧٦ باختصار الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (طبعة مصر ١٩٠٠م).